تفسير

سورة الفيل

سورة الفيل مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾

(١)
في تفسير كلمات السورة

ليس في السورة كلمة غريبة. وإنما نفسرها لتتضح وجوهها وما يتعلق بها من الأحوال.

١- فأما "أصحاب الفيل" فجيش أبرهة الأشرم. ونذكر قصته في الفصل (٦-١٠).

٢- وأما "الفيل" فواحد، ولكن أضيف إليه الجمع، فأريد به الصنف، وهذا كثير، كقولك: "أصحاب الرأي" و"أصحاب الحديث". قال تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة﴾ [سورة المزمل/١١]. فاللفظ محتمل للواحد والأكثر، وبكليهما جاءت الروايات. والكثرة أقرب. والله أعلم.

٣- وأما "الكيد" فهو التدبير الخفي لضرر العدو. وقال تعالى ﴿إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا﴾ [سورة الطارق/١٥-١٦]. أيضا في

قصة فرعون: ﴿فجمع كيده ثم أتى﴾ [سورة طه/٦٠] وأيضا فيها: ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا﴾ [سورة طه/٦٤]. وأيضا في كفار العرب: ﴿لا يضركم كيدهم شيئا﴾ [سورة آل عمران/١٢٠].

وقال النابغة:

يقودهم النعمان منه بمحصف   وكيد يعم الخارجي مناجد [1]

وقال زهير بن أبي سلمى يصف الملك سنانا:

له لقب لباغي الخير سهل   وكيد حين تبلوه متين[2]

أي تدبير محكم. وقال تعالى: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [سورة الأعراف/١٨٣]. وكذلك ينسب إليه الوهن والضعف، قال تعالى: ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ [سورة الأنفال/١٨]. وأيضا: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ [سورة النساء/٧٦]. وكذلك ينسب إليه الضلال و التباب، وعدم الهداية، كما سيأتيك.

٤- وأما "التضليل" فهو المبالغة من "الإضلال". والمصدر ههنا استعمل بمعنى المجهول. والمراد: عدم إصابة المقصود. ولذلك ينسب إليه الضلال وعدم الهداية، قال تعالى: ﴿وأن الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ [سورة يوسف/٥٢]. قال كعب بن زهير:

إن الأماني والأحلام تضليل

٥- وأما "في تضليل" فمعناه: إنه ذاهب في طريق الضلالة. قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ [سورة غافر/٣٧] و"التباب"

---

[1] ديوانه: ١٣٨ .

[2] ديوانه: ٨٣ .

صورة الضلال، أي يذهب شذر مذر فلا يبقى منه في يده شئ. وبين الله تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد﴾ [سورة إبراهيم/١٨].

٦- وأما "أرسل عليهم" فـ"على" ههنا جامعة لمعنى العلو والضرر، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً﴾ [سورة القمر/١٩]. وأيضا: ﴿أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ [سورة مريم/٨٣]. وهذا كما يقال: أرسل الكلب على الصيد.

٧- وأما "الطير" فعند الأكثرين اسم جمع[1] مثل ركب وصحب وعندي اسم للصنف، فإنه يطلق على الواحد أيضا. قال تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ [سورة آل عمران/٤٩]. فإذا أريد به الجماعة أريدت غير معدودة، وحينئذ هو أدلّ على الكثرة من صيغة الجمع. قال تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ [سورة ص/١٩]. أيضا: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ [سورة الملك/١٩].

٨- وأما "أبابيل" فجمع من غير واحد، كالعباديد[2]. وقيل: جمع

---

[1] انظر مثلا الكشاف ٤: ٢٣٤. ولسان العرب (طير) .

[2] قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "لم نر أحدا. يجعل لها واحدا". مجاز القرآن ٢: ٣١٢. وقال الفراء: "لا واحد لها مثل الشماطيط، والعباديد، والشعارير، كل هذا لا يفرد له واحد" معاني القرآن ٣: ٢٩٢ .

"إبالة"[1] والأبابيل: جماعة من الخيل والطير وغيرهما[2]. قال زهـير بـن أبي سلمى:

وبالفوارس من ورقاء قد علموا   فرسان صدق على جرد أبابيل[3]

وقال الأعشى:

طريق و جبار رواء أصولـه   عليـه أبابيل من الطير تنعب[4]

٩- وأما "الحجارة" فقالوا: إنما جمع حجر[5]. وعندي إنها اسم للصنف. قال تعالى حكاية عن قول المشركين: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [سورة الأنفال/٣٢]. أيضا: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ [سورة الإسراء/٥٠-٥١]. وقال الأعشى:

وحـوادث الأيـام لا   يبقى لها إلا الحجارة

١٠- وأما "سجيل" فمعرب من "سَنك" و"كِل".[6] و"سَنك" بالفارسية: الحجر. و"كل" هو الطين. وهذه كلمة فسرها القرآن حيث أتى بها في قصة لوط مرة بلفظها، فقال: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من

---

[1] قال الفراء: وزعم لي الرؤاسي ، وكان ثقة مأمونا: أنه سمع واحدها: إبالة". معاني القرآن ٣: ٢٩٢ .

[2] انظر لسان العرب (ابل) .

[3] ديوانه: ٥١ .

[4] ديوانه: ٢٣٧ وانظر اللسان (طرق ، جبر ، روى) .

[5] انظر الصحاح واللسان (حجر)

[6] انظر الطبري ٣٠: ١٩٣. والكشاف ٤: ٢٣٤ .

سجيل منضود﴾ [سورة هود/٨٢]. أي الحصى: من صنف سجيل، ومرة: ﴿حجارة من طين﴾ [سورة الذاريات/٣٣]. واستعمل هذه الكلمة المعربة لكونها داخلة في لسان العرب. وهي أحسن فاصلة من طين، فآثرها عليه.

١١- وأما "كعصف مأكول" فالعصف: ورق الزرع وساقه اليابس المنكسر. و"المأكول": ما من شأنه أن يوكل- تسمية الشئ بما يؤول إليه، وهذا أسلوب عام في الكلام. قال تعالى: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [سورة الأنفال/٤٢].

وإنما شبه أصحاب الفيل بالعصف المأكول لما أنهم هزموا وكسروا ومزقوا كل ممزق، وذهبت سلطنتهم بعيد ذلك. وهذا تشبيه معروف. قال عدى بن زيد في قصيدته المشهورة:

ثم صاروا كأنهم ورق جف   فألـوت به الصبا والدبور[1]

وهكذا في القرآن: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح﴾ [سورة الكهف/٤٥] أي جعلهم كهباء منثور. وهكذا جاء في الصحف الأولى (هوشع ١٣: ٣):

"لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكرا. كعصف يخطف[2] من البيدر وكدخان من الكوة".

فبإيراد الفقرات المرادفة بين المعنى.

---

[1] كتاب الأغاني ٢: ١٣٩. وروى "غدوا" بدل "صاروا" في الشعر والشعراء لابن قتيبه: ١٣٦ (بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م) .

[2] في الترجمة البيروتية: "كعُصافة تُخطف" .

ثم زاد هذا التشبيه حسنا أن أصحاب الفيل تناثرت أعضاؤهم، وأكلتهم سباع الطير، كما سيأتيك بيانه. فصدق عليهم صورة ومعنى أنهم صاروا كعصف مأكول.

(٢)

في تعيين المخاطب بهذه السورة

قبل النظر في عمود السورة وربطها لابد من تعيين المخاطب بهذه السورة ليتمهد السبيل إلى معرفة صحيح التأويل، وربط المعنى، وحسن الموقع.

فاعلم أن الخطاب ههنا متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها. وهذا أسلوب خاص يطلق الواحد فيه على الجميع على سبيل الإنفراد. وله أمثلة في كلام العرب والقرآن، وفي التوراة حيث خاطب الله بني إسرائيل بضمير الخطاب الواحد، كما بيناه في كتاب الأساليب. وأما ههنا فنذكر بعض أمثلة من القرآن، ليطمئن به الناظر البصير. قال تعالى: ﴿ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته﴾ [سورة لقمان/٣١]

فبدأ بالواحد، وأعقبه الجمع. فإن المراد من الواحد كان هو الجمع. وأيضا: ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [سورة إبراهيم/١٩].

وربما يبدأ بالجمع ثم يعقب الواحد، فإن المراد هو الجمع، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ [سورة البقرة/١٠٤] حتى قال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير. ألم تعلم أن

الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ [سورة البقرة/١٠٦-١٠٧].

فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد، ثم أعقبه الجمع. وأيضا: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ [سورة الشعراء/٢٢١-٢٢٥].

فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد. أيضا: ﴿إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ [سورة الأعراف/١٩٨].

وكثر الانتقال من الواحد إلى الجمع ثم إلى الواحد في آيات (٢١-٤٠) من سورة بني إسرائيل، ولا يمكن القول فيه بأن الخطاب إلى النبي. فإن في نفس تلك الجملة ما يمنع عنه، فإن فيها قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهر هما وقل لهما قولا كريما﴾ [الآية/٢٣].

فهذا المثال حاسم الشكوك. فإن قيل: نعم، ولكن كيف نجعل المخاطب جماعة في هذه السورة، والمشهور أن الخطاب إلى النبي ﷺ ولا مانع عنه في الكلام، قلنا: لذلك أسباب:

الأول أن كلمة "ألم تر" تجئ عموما لعموم الخطاب، فصرفها إلى الخصوص من غير قرينة خلاف سنتها. بل القرينة الظاهرة أن الذين رأوا هذه الواقعة أولى بالخطاب. وكثر في القرآن استعمال المخاطب الواحد للجميع، كما رأيت في الأمثلة التي ذكرنا، وما هي إلا يسير مما لم نذكره.

فإن قيل: إن القرآن تنزيل من الله تعالى إلى النبي ﷺ فالأصل في بدء الكلام أن يخاطبه إلا أن يمنع مانع، قلنا: قد علمنا من سنة القرآن أنه

يخاطب الناس في بدء الكلام، كما في طيه. مثلا: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [سورة التكاثر/١]، و ﴿يا أيها الناس﴾ بدأ به سورتين [سورة النساء وسورة الحج]. وفي طي الكلام قوله: ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ [سورة النجم/٥٥]. وأيضا: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [سورة الرحمن]مكررا.

ومن يلتمس حسن التأويل يجد كثيرا مما يراه ناس خطابا إلى النبي ﷺ أنه خطاب عام. فمنه قوله تعالى: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ [سورة التين/٧]. أيضا: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ [سورة القارعة/٣]. أيضا: ﴿وما أدراك ماهيه﴾ [سورة القارعة/١٠]. وإذ قد أكثر القرآن من خطاب الإنسان عموما أو المخاطبين حسب موقع الكلام بالواحد والجمع والمثنى، فالأصل في صرف ذلك ليس إلا ما يدل عليه حسن التأويل.

والثاني أن ظاهر هذه السورة يدل على حماية مكة وأهلها عن عدوهم. والاستفهام ههنا ليس إلا للردع والتنبيه كما هو ظاهر. وذلك لابد أن يصرف إلى من ظهر منه تغافل عما استفهم، فينبه على ما علم. كأنه قيل له: كيف تفعل ذلك وأنت تعلم ما يسدك عن فعلك هذا. وترى ذلك بينا في الآيات التي أوردناها في هذا الفصل حيث جاء: "ألم تر"و" ألم تعلم" للردع والتنبيه. فكيف يصرف الخطاب إلى النبي ﷺ، وليس في السورة شئ يدل على تغافل منه، أو أمر يقتضي تنبيهه.

وأما أهل مكة فإنهم بشركهم وصدهم المسلمين عن الصلاة أظهروا أنهم غير شاكرين لربهم. وعلى هذا المعنى دلالة واضحة في السورة التالية، فهؤلاء المشركون أولى بأن ينبهوا على ما غفلوا عنه. كأنه قيل لهم: هلا تعبد رب هذا البيت وتوكل عليه وتدع الشرك؟ فإنه هو الذي نصرك وآمنك من خوف أعدائك الأقوياء.

الثالث أن القرآن إنما نزل ليقرأ على الناس، كما قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [سورة الإسراء/١٠٦]. فإن صرف هذا الخطاب إلى النبي ﷺ لابد أن يراد به تسليته من الله تعالى. وأنه كما هزم جنود أعداء هذا البيت فكذلك سيهزم هؤلاء المشركين الأقوياء، فإنهم أعداء الله. فهذا المحمل وإن صح خطابا بالنبي، ولكن إذا قرأه النبي على الناس صار حجة لهم، فإنهم حينئذ يقولون: نحن أولى بنصر الله، فإنا ولاة بيته ؛ ألا ترى كيف انتصر الله لنا وأهلك أعداءنا؟ فلا يحسن تأويل السورة إلى تهديدهم. وإنما يحسن تأويلها إلى تحريضهم على التوحيد بذكر النعمة التي أنعم عليهم بها، كما صرح به في السورة اللاحقة. وهذا يقتضي صرف الخطاب إليهم.

والرابع حسن الربط بالسورة التي بعدها، كما سيأتيك بيانه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى. فتبين مما قدمنا أن السورة ليست بخطاب إلى النبي ﷺ. إنما أنزلت ليخاطب النبي بها قريشا كلها على سبيل الإنفراد. وفي اختيار صيغة الواحد دلالة على أن كل امرئ منهم يجب عليه أن يشكر ربه ويذكره ويخافه كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده، كما صرح به في السورة التالية. فإذا تبين ذلك فلابد من صرف كاف الخطاب في "ربك" إلى ذلك المخاطب.

(٣)

عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله. فدعا عليه بالويل وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي

هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم و اجترأوا على الله، لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في ارشليم عنادا لليهود كما فعل اليهود بهم. وليس هذا موضع تفصيله.

فذكر القرآن هذا الغني المختال هذه الواقعة التي شهدها بعينه، فإنه من كفرة قريش. والظاهر أنه أبو لهب، المتمسك ببدعاته مع أتباعه الذين أبطلوا حرمة البيت بفسقهم وطمعهم، كما ذكرنا في تفسير سورة لهب وغيره. فكأنه قيل له: ألم تر كيف حطم الله أمثالك وجعلهم كعصف مأكول، أما شهدت حالهم ومآلهم إذ نضحهم الرب عن هذا البيت المحرم الذي منه شرف قريش، ورزقهم وأمنهم. وقد علمت أنك لم تغلب عليهم بقوتك بل بنصر من الله الذي هو رب هذا البيت. فأدخل في قلوبهم الرعب وبدل حصباء أصابتهم حصباء أذابتهم، فطردهم عنك إذ ترى جلهم صرعى بين عينيك أو حولك. ثم أرسل عليهم عصائب طير أبابيل تأكل لحوم الأفيال والافيال عبرة لك ونعمة عليك، فطهر واديك من نتن الجيف العظام. فكفاك مؤنة كبرى وأراك بذلك آية أخرى. فكيف أنت بعد مشاهدة هذه النعمة والنقمة تكفر بربك وتستهين شعائره ؟

وأما قولنا أن هذه الطير كانت تأكلهم فيأتيك بيانه في الفصل التاسع إلى الحادي عشر.

فاتضح مما قدمنا أن عمود هذه السورة تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصا والعرب عموما من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم. فجعل لذكر هذه النعمة سورة كاملة. فلم يذكر ما يتعلق به من الحكم، أي: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾

[سورة قريش/٣]. فجعله في سورة تالية، لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة التي فضلهم بها على سائر الأمم حتى بني إسرائيل- فإنهم أسروا وقتلوا ومزقوا كل ممزق. وكذلك أخذ عنهم بلدهم وهيكلهم، ودمر وحرق- ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله واسع عليم﴾ فيعطي حسب علمه وحكمته، فليشكروا له ولا يغتروا بنعمته.

وإنا نذكر أسباب هذا التفضيل ليتضح أن ذلك كان على غاية الحكمة.

(٤)

بيان ما فضل الله به هذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويها

كل ما علمنا الله تعالى من قصص الأولين أودع فيها آيات على عدله وحكمته. فإذا نظرنا فيها ظهر لنا بعض الوجوه التي تهدى إلى هذا الفرق بين مكة ويروشلم وذويهما. والآن نذكر طرفا منها آخذين من التوراة ليكون حجة على أهل الكتب.

الأول: من جهة كون الكعبة أصلا وأساسا للدين:

وذلك بأن هذا البيت كان أول بيت وضع للناس مركزا للتوحيد، والإطعام. وهذا مما بدلته اليهود مع أن حقيقة الأمر تلمع من التوراة. وقد مر بحثه تحت آية: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ [سورة آل عمران/٩٦-٩٧]. فذكر ثلاثة دلائل على كونها أول بيت وبناء

إبراهيم. وبسط الكلام تحت هاتين الآيتين

فأول بيت الله أحق بالحفظ. فكان كالأساس و الأم للدين الحق. وأما بيت يروشلم فكان بناء سليمان (عليه السلام) كما صرحت به التوراة. ولم يكن لهم بيت العبادة قبله. في الملوك الأول ٨: ١٦:

"منذ يوم أخرجت شعبي إسرائيل من مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك".

الثاني: من جهة كرامة من بناه:

فإن الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما. والبيت المقدس بنته العملة المكرهة المعذبة، كما صرح به في التوراة. وفي القرآن أيضا إشارة إليه. ثم دعا إبراهيم (عليه السلام) أن يتقبلها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [سورة البقرة/١٢٧].

ودعا إبراهيم (عليه السلام) لمكة بالأمن والبركة، ولكنه (عليه السلام) خص بدعائه المؤمنين. فعمه الله للكافرين أيضا في الدنيا، حيث قال: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ [سورة البقرة/١٢٦]. فلرعاية حرمة البيت العظيم لم يرض الله أن يعذب ذريته فيه بعد كفرهم. وأما وعد الله في بيت يروشلم فجاء في الملوك الأول (٩: ١-٩):

"وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذي سره أن يعمل أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له في جِيعُون. وقال له الرب قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمامي. قد ست هذا البيت الذي

بنيته لأجل وضع اسمي فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام. وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داؤد أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضي وأحكامي فإني أقيم كرسي ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داؤد أباك قائلا لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل. إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناءكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها والبيت قدسته لا سمي أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلا وهُزأة في جميع الشعوب. وهذا البيت يكون عبرة. كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إليهم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر".

ومثل ذلك في يرمياه: (٧) وفي ذلك لنا عبرة عظيمة. فإن الله تعالى يتقبل شيئا حقيرا إن قرب به بخضوع القلب والتقوى، كما جاء في قربان هابيل وقابيل. والمسجدان كلاهما رفعا بتقوى الله والخضوع ولكن شتان ما بينهما. فإن مسجد يروشلم كان بناء ملوكيا من الأحجار الثمينة والذهب الإبريز، وعمل رجال مسخرين كارهين، فيهم مسلم وكافر. انظر الملوك الأول (٥-١٢).

الثالث: من جهة كونه من الرب تعالى

فإن إبراهيم (عليه السلام) بناه بأمر الرب، وأمره بالهجرة إلى موضعه، وأراه مكانه، ووعد أن يعذب من جاء إليه ملحدا وظالما وأوفى هذا الوعيد

بأصحاب الفيل. فهذه أربعة أمور ذكرها في القرآن. وبقي في التوراة إليها إشارات من بقايا ما أخرجته اليهود كعادتهم التي شهدت بها كتبهم.

وأما مسجد يروشلم فجل أمره أن أراد داؤد (عليه السلام) أن يبني بيتا لعبادة الله، فمنع عنه وحول إلى ابنه سليمان (عليه السلام)، فبناه كيف شاء وأين شاء. جاء في سموعيل الثاني (٧: ١-١٧):

"وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه[٢] أن الملك قال لناثان النبي انظر. إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق.[٣] فقال ناثان للملك اذهب افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك.[٤] وفي تلك الليلة جاء كلام الرب إلى ناثان قائلا:[٥] اذهب وقل لعبدي داؤد هكذا قال الرب. أ أنت تبني لي بيتا لسكناي.[٦] لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن.[٧] في كل ما سرت مع جميع بني إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبي إسرائيل قائلا لم لا تبنون لي بيتا من الأرز.[٨] والآن فهكذا تقول لعبدي داؤد. هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبي إسرائيل.[٩] وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وجعلت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين في الأرض.[١٠] وعينت مكانا لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن في مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما في الأول.[١١] ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبي إسرائيل. وقد أرحتك من جميع أعدائك. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتا.[١٢] متى كملت أيامك واضطجعت مع

آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته.[١٣] هو يبني بيتا لا سمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد.[١٤] أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابناً. إن تعوج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم.[١٥] ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك.[١٦] ويأمن بيتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتا إلى الأبد.[١٧] فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كذلك كلم ناثان داؤد".

ثم لما أراد سليمان (عليه السلام) أن يبني البيت وشرع فيه أوحي إليه. في الملوك الأول (٦: ١١-١٣):

"وجاء كلام الرب إلى سليمان قائلا[١٢] هذا البيت الذي أنت بانيه إن سلكت في فرائضي وعملت أحكامي وحفظت كل وصاياي للسلوك بها فإني أقيم معك كلامي الذي تكلمت به إلى داؤد أبيك.[١٣] وأسكن في وسط بني إسرائيل ولا أترك شعبي إسرائيل".

الرابع: من جهة كونه مؤسسا على كمال الإسلام

وذلك بأن إبراهيم (عليه السلام) قرب هناك ابنه إسماعيل، وهما أسسا هذا البيت، ودعوا الرب أن يتقبله، كما مر في الوجه الثاني. واليهود غيروا هذه القصة، ولكن كذبهم باد مكشوف في التوراة ؛ غير أنهم أدخلوا اسم اسحاق. ومر هذا البحث في تفسير سورة "والصافات" وأفردنا له كتابا يختص بهذا الموضوع[١].

---

[١] وهو "الرأي الصحيح في من هو الذبيح". نشرته دار القلم-دمشق بيروت سنة ١٩٩٩م.

والخامسة: من جهة صبر من سكن عنده من ذرية إبراهيم عليه السلام

وذلك على طريقين: طريق القرآن، وطريق ما يوجد في صحف اليهود. فمع كونه من تحريفاتهم، نذكره إلزاما لهم.

فأما طريق القرآن فإن إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته من سارة عليها السلام في أخصب البلاد في الأرض التي تجري عسلا ولبنا. وأما ذريته من هاجر عليها السلام فأسكنها في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

وأما على طريق ما يذكر في صحف اليهود فإن افتراق هاتين العشيرتين كان بدؤه بأن هاجر عليها السلام اعتصمت بالصبر على المشقة والهوان مما أصابتها من سارة عليها السلام لما غارت عليها حين رأتها مثمرة. فباركها الله، وجاءها كلام الله مرتين. ولم يكن هذا لسارة عليها السلام. وفي ذلك عبرة لنا. فإن الله تعالى رؤف على المنكسرة القلوب، كما ذكر كثيرا في الكتب المقدسة. أما الإشهاد على ما قلنا فجاء في تكوين (١٦: ١٠-١١):

> "وقال لها ملك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة.
> [١١] وقال لها ملك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك" (أي سمع لتضرعك).

وكذلك في تكوين (٢١: ١٧-١٨):

> "[١٧]....ونادى ملك الله هاجر من السماء وقال لها الملك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. [١٨] قومي واحملي الغلام وشدي يدك به. لأني سأجعله أمة عظيمة".

وكذبت اليهود في قصة هاجرة وإسماعيل عليهما السلام كما مر في سورة إبراهيم. ومع ذلك اعترفوا بأمور على رغم أنفهم، فنلزمهم ما اعترفوا به.

السادس: من جهة ما كان من بني إسماعيل من حسن الجزاء إلى إخوانهم بني إسحاق مع إساءتهم إليهم، ففضلهم الله عليهم

وذلك حسب قول اليهود أن سارة قد حقرت هاجرة وسمتها جارية. ثم مضت سنتها، فعيرت أولادها أولاد هاجرة باسم ولد الأمة. ولم يكونوا إلا أحرارا. فما لبث أولاد سارة أن صاروا عبيدا في مصر، كما جاء في تكوين (٣٧: ٢٥-٢٨):

> "[٢٥] ثم جلسوا ليأكلوا طعاما. فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. [٢٦] فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه. [٢٧] تعالوا فنبيعه للإسمعليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. [٢٨] واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسمعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر".

في هذه العبارة أيضا كتمان أمر، ولا نبحث عنه ههنا. فكان أول أمرهم أن باعوا يوسف لبني إسماعيل، ثم أسرتهم الفرس والمصر والروم.

وأما أولاد هاجرة فلم يستعبدوا منذ كانوا، كما شهد به علماؤهم. والله عاصمهم، وله الحمد. ثم انتقم بنو هاجرة لبني سارة من مستعبديهم. وبيانه في تفسير سورة البقرة. فاشتراهم بنو إسماعيل، وجرت السنة بهذا، فإنهم يجدون الملجأ في ملك المسلمين من اضطهاد الأمم. ثم ينعم عليهم في الأيام الآخرة إذا آمنوا بخاتم الأنبياء حسب وعد التوراة والقرآن. ونرى اليوم آثاره.

وفي هذه الوقائع لم يستعبدهم بنو إسماعيل بل نصروهم وانتصروا لهم كما ينتصر الأخ للأخ. ألا ترى حين باعوا يوسف عليه السلام لم يستعبده

الإسماعيليون، كما قال تعالى ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

السابع: من جهة لصوق بني إسماعيل بالرب تعالى أكثر من بني إسرائيل

فإن الله تعالى عذب اليهود لسوء أعمالهم، وتهالكهم على الوثنية، وترك الإله الحي الذي أنعم عليهم، كما ترى ذكر ذلك في التوراة غير ما ذكر من شركهم بالله (يرمياه: ٧).

وأما العرب فلم يتركوا الله الحي. إنما أخذوا له شفعاء وسموهم أبناء الله وبناته كالنصارى، وقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣]. وكما جاء في سورة يونس: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلآء شفعآؤنا عند الله﴾ [الآية: ١٨]. فلم ينكروا بالله أبدا. وكانوا يحجون البيت ويهللون ويعبدون الله. فكان كفر اليهود أعظم من كفر العرب.

الثامن: من جهة كون بني إسماعيل أقرب إلى العذر من بني إسرائيل

فإن بني إسماعيل لم يضلوا عن أصل دينهم إلا بعد ما طال عليهم الأمد ونسوا وصايا إبراهيم عليه السلام، ولم يبعث فيهم نبي يذكرهم. ومع ذلك نشأ فيهم من اتخذوا الحنيفية دينا وتركوا الأوثان. فأما اليهود فعبدوا العجل والنبي بين أظهرهم، وقد آمنوا به وشاهدوا آياته البينات. ثم بعد ذلك تركوا عبادة الله للأوثان مرة بعد مرة ولم يبعد عليهم عهد النبي، كما جاء في كتب "القضاة" و"الملوك" من التوراة. والله تعالى لا يعذب قوما إلا بعد الإنذار وإقامة الحجة، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [سورة الإسراء/١٥]. فهذه جملة ما تظهر من الوجوه التي لأجلها حمى الرب تعالى هذا البيت. ولله الحمد.

(٥)
أمور مهمة مما يتعلق بتقديس مسجد وحفظه

فيما سبق من ذكر مزايا بني إسماعيل على بني إسرائيل، وتاريخ الكعبة، ومسجد يروشلم إشارة وتمهيد لبعض أمور مهمة غير ما مر عليك في أثناء الكلام. والآن نذكر منها ما يكون مدحضا لبعض الشكوك.

الأول: إنه ليس للعبد أن يتطاول على الله ويقول: لنا مزية وفضل، فنستحق كذا وكذا. فإن الفضل والمنة لله تعالى. وأوثق عرى العبد هو التذلل والاستكانة. وما يتراءى كالفضيلة فليس إلا جالبة لرحمته تعالى كالدعاء، فإن العبد بعد دعائه لا يتخيل أنه منّ على مولاه بشئ، أو صنع له شيئا فيطلب أجرته. وقصاراه أن يرجو من الرب الرحيم الذي يسبل النعم من غير دعاء أن لا يخيب داعيا متضرعا. وعلى ذلك آيات كثيرة في القرآن والتوراة والإنجيل.

ولكنه تعالى لا يجعل المحسن والمسيء سواء. فيبتلي العباد كما ابتلى إبراهيم، فقرب بإسماعيل وأسلما للرب. ولكن إسماعيل وأباه ما كانا إلا من ملك الله وصنع يده. فأي خير صنعا لربه، ولكن أنعم عليهما بعد هذا الامتحان بالبركات الجديدة.

فهذا الأمر وإن كان من البديهيات، ولكن إذا قسا القلب وغشيته الظلمات لا يهتدي لها. ولذلك قال يحيى عليه السلام لليهود:

"لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم"[١].

---

[١] إنجيل متى ٣: ٩ .

والنصارى أفرطت في جانب آخر. فقالوا: إن الأعمال ليس فيها رجاء، فكانوا كالجهمية، كما أن اليهود تشبه القدرية. فمع كل ما ذكرنا من مزايا بني إسماعيل لا فضل فيه إلا لله تعالى، وحق له أن يذكرهم نعمته ليرجعوا إليه مخلصين له الدين.

والثاني: أنه كما أن العبد لا استحقاق له على الله تعالى، غير أنه رؤوف ومنجز لما وعد، فكذلك ليس لمسجد أو معبد سمي باسمه حق على الله أن يحميه، غير أنه من أجل رحمته على عباده يذب عنه لما تقربوا به. ألا ترى كيف تضرع إبراهيم عليه السلام وسليمان عليه السلام بعد بناء البيت أن يتقبله الله، فينظر الله إلى مقربة العبد بعين الرحمة. ولكنهم إذا نسوا الله وعصوه عتوا وتماديا كان حريا بهم أن يضرب الله على وجوههم ما قرب به آباؤهم، بيد أنه تعالى لا يعجل بالعذاب كما جاء في التوراة والقرآن كثيرا. ففي ذلك المنة لله تعالى.

وهذا أيضا من البديهيات. ولكن أكثر الناس غرتهم الأماني، ويظنون أن للمخلوق عزة على الله.فتأمل فيما مر في آخر الفصل الثاني. ويلمح إلى مثل ذلك ما جاء في سورة التوبة: ﴿أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ [الآية/١٩]. فأقرب الوسائل عند الله هي الطاعة والتقوى. وبها ولها قامت شعائر الله غير ما وعد الله من الرحمة، والمهلة. فله الحمد ولنا الرجاء، ولا استحقاق لنا على الرب تعالى.

الثالث: أن الله تعالى إذا تقبل بيتا وقدسه لا سمه ﴿إنمايتقبل الله من المتقين﴾ [سورة المائدة/٢٧] صار ذلك البيت ينبوع بركته، ويمين عهده. فكلما جاءوا إليه ذاكرين اسمه ومجددين عهده كان العهد قائما، كما قال

لبني إسرائيل: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ [سورة البقرة/٤٠]، ولبني إسماعيل: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢].

ولكنهم إن بدلوا العهد وهم أنفسهم قاموا لخراب البيت فحري بالرب أن يخلي بينهم وبين البيت المقدس. فإن الله تعالى غني عن العالمين ويقضي على الأمة حسب أفعال أكثرهم، أو يثبطهم حين قام بعضهم للشر. فإن التقوى نصفها التعاون في فعل الخير ومنع الشر، كما مر بيانه في سورة العصر.

هذا حسب مجرى العدل الظاهر. فإن عاملهم بالحلم لجهلهم أو لعلمه بخير مستكن فيهم أو لحكمة أخرى فهو العليم الحليم الحكيم. كما ترى ذلك في أمر اليهود والنصارى في أمر صحفهم. فإنهم بدلوها و لم يمنعهم عن ذلك. وأما القرآن فحفظه عن أيدي الزائغين مع حرصهم على التحريف والتغيير. وله الحمد والمنة.

(٦)
إجمال القصة حسبما نص عليها القرآن

اعلم أن قصة أصحاب الفيل لها إجمال وتفصيل. أما مجملها فهو الذي نص عليه القرآن. وأما تفصيلها فأخذوها من الروايات المختلفة المتفاوتة في الصحة والضعف. والمفسرون يذكرون تفاصيل القصص من غير بحث عما ثبت وعما لم يثبت.

وهذا ربما يعظم ضرره، وربما يصرف عن صحيح التأويل. فلابد أولا من الفرق بين المنصوص وبين المأخوذ من الروايات. ثم لابد ثانيا من التمييز بين ما ثبت وبين ما لم يثبت. فنذكر أولا ما نص عليه القرآن.

فاعلم أن القرآن لم يفصل في قصة أصحاب الفيل بأنهم جاءوا لهدم الكعبة، ومن كانوا ومن أين جاءوا. لأن الواقعة كانت على غاية الاشتهار حتى أن العرب اتخذتها مبدأ تاريخهم، وذكروها في أشعارهم. وسيأتيك بعضها في الفصل العاشر. والسكوت عن التفصيل أبلغ بيانا لدلالته على غاية الشهرة. وإصدار الكلام بقوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ يناسب هذا الأمر. فإنه لا يخاطب به إلا فيما لا يخفى على أحد، كأنه رآه كل من يخاطب به وإن لم يره بعينه. وهكذا ينبغي عند طلب الإقرار بشئ كما هو معلوم عند أهل العربية. ثم إذا أخرج الكلام هذا المخرج لا يذكر فيه إلا ما كان مشهورا معلوما، فالتفصيل لا يليق به، كما ترى في سورة الفجر:

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ [الآيات: ٦-١٣].فذكر من هذه الأمم مجملا ما كان مشهورا.

فهكذا في قصة أصحاب الفيل اكتفى بالإجمال وذكر من أمرها ما صرحت به هذه السورة وما يلمع إليه موقعها، ونظمها بالسورة التالية. فجملة القصة أن الله تعالى مزق أصحاب الفيل الذين راموا كيدا خلاف بيته المحرم. فأرسل عليهم جندا من جنوده فإن له جنود السماوات والأرض، وأهلكهم بحجارة من سجيل رموا بها. وكان ذلك منه إنعاما على قريش وسائر العرب، وذبا عن حرمه.

فهذا القدر هو المنصوص. فلا ينبغي الخلط بينه وبين أخبار فيها اختلاقات شتى. وبعد ذلك إن تطلعنا إلى ما جاء في الأخبار فلابد من البحث والتنقيح لتمييز الحق الصريح.

فالآن ننظر أولا فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة ومما جرى بينه وبين أهل مكة، وثانيا فيما كان من رمي أصحاب الفيل، وثالثا فيما كان من أمر الطير. فههنا ثلاث نظرات.

(٧)

النظرة الأولى ـ وهي فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب

كل ما ذكروا من سبب مجئ أبرهة لغضبه على العرب، ومن فرار أهل مكة، ومما جرى بين أبرهة وعبد المطلب لم يثبت من جهة السند. فإن كل ذلك لا يجاوز ابن إسحاق. ومعلوم عند جهابذة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود وممن لا يوثق به. ثم يبطل هذه الأمور روايات أخر، ويبطله ما ثبت عندنا من عادات العرب.

ومما يدل على كونها من أكاذيب الأعداء أنها ما تعمدت إلا غضاضة من العرب وحميتهم، وإهانة لرئيسهم عبد المطلب القرشي، وتنويها بحسن خلق أبرهة الحبشي، ومسبة على من هيجه على هدم الكعبة، وبسطا لعذره إذ انتصر لكنيسته. فلم يترك الكذابون شيئا من الذلة والمنقصة والعار والشنار إلا نسبوها إلى العرب وقريش ورئيسها. فلا نكتفي ههنا بإرسال القول فيها، بل نذكر لك الوجوه التي تدل على كذب هذه الروايات.

فالأول: إنهم زعموا أن عبد المطلب قال إن لهذا البيت ربا يمنعه، فقام على باب البيت ودعا الله، ثم تحرز مع جميع أهل مكة بشعف الجبال[1].

---

[1] ولتفصيل القصة انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٤-١٩٦، وتاريخه ٢: ١٣٣-١٣٥. والسيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٢-٤٤

فنقول إنه ليس على وجه الأرض قوم لا يعتقد أن معبده بيت الله. فهل تراهم مع ذلك يتركون معابدهم في أيدي العدو، ولا يدفعون عنها. هذا لا يتصور من سكان السهول فكيف من قريش، بل سائر بني إسماعيل؟ فإن أفراسهم وجبالهم وأسيافهم ونبالهم كانت لهم أحصن معاقل. ولذلك بقوا على حريتهم منذ كانوا، كما اعترف به المؤرخون الأجانب.

والثاني: إنهم زعموا أن عبد المطلب جاء إلى أبرهة يسأله ما أخذ عسكره من إبل عبد المطلب. فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه[1]. ثم جرى الكلام بينهما، فقال أبرهة: "أتكلمني في مأتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك. قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه"[2].

فهل يمكن أن يترك عبد المطلب التكلم في أمر البيت بعد ما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن به أنه لو سأله الانصراف عن هدم البيت لفعل. ثم إنه لم يترفع عن المجئ إليه والسؤال لإبله.

والثالث: إن أهل السير يروون أن القبائل من أول خروج أبرهة كانت تهجم على جيشه، وتمنعه عما أراد[3]. وذلك يدل على أن العرب كلها صارت مخالفة له. وقتالهم بأبرهة كان من الوقائع المشهورة. فقد

---

[1] انظر ابن هشام ١: ٤٢، وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٥ .

[2] ابن هشام ١: ٤٢ وتفسير الطري ٣٠: ١٩٥ .

[3] انظر ابن هشام ١: ٣٩و٤١. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤. وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

افتخر به بعض الشعراء. قال ذو الرمة، وهو من قدماء الإسلاميين:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا   جهارا وعثنون العجاجة اكدر
تنحى له عمرو فشك ضلوعه   بنافذة نجلاء والخيل تصبر[1]

فصرح بأنه طعنه رجل من قومه، وبأنه كان في يوم ذي غبار كثيف مرتفع إلى السماء. وذلك بأن الله أرسل عليهم ريحا حاصبا فحصبتهم، كما سيأتيك ذكره في الفصل العاشر.

وبالجملة فإن العرب دافعوا عن بلد الله المحرم، وهذا هو أقرب إلى العقل. فإن جمهور العرب تعظم الكعبة، فلا أدري كيف غلب الرعب على قريش حتى أنهم لم ينتصروا لما عليه بناء رئاستهم وشرافتهم فضلا عما أشربت النفوس من الذب عن دينها ومعبدها.

والرابع: إن علماء السير يروون أن جيش أبرهة جاء في موسم الحج، ويؤيده قول عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف يذكر أخذهم هجمة من البدن:

لا هُمَّ أخزِ الأسود بن مقصود   الآخذَ الهجمة فيها التقليدُ
بين حراءٍ وثبيرٍ فالبيد   يحبسها وهي أولات التطريد
فضمها إلى طماطم سود   أخفره يا رب وأنت محمود[2]

فإن خافت قريش، فهل دخل الفشل في جميع العرب؟ وقد كانوا يقاتلون جيش أبرهة وهم متفرقون. فكيف أذعنوا له إذا أمكنهم دفع العدو عن مركز واحد بقوة مجتمعة ومعبدهم بين أعينهم أو بقرب منهم؟

---

[1] ديوان ذو الرمة: ٣١٨ ، الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

[2] ابن هشام ١: ٤٣ .

والخامس: إنهم عابوا ثقيفا لفرارهم عن حماية الكعبة، كما قال ضرار بن خطاب:

وفرت ثقيف إلى لاتها   بمنقلب الخائب الخاسر[1]

والروايات متفقة على موافقة ثقيف بأبرهة، ورجم قبر أبي رغال الثقفي الذي صار دليلا لجيشه[2]. فلو فرت العرب كلها مثل ثقيف لما عابوا ثقيفا ولا لعنوا رئيسها أبا رغال، وظنوا لعله كان قد أكره.

والسادس: إنه قد زعموا أن أبرهة كان رجلا حليما، وإنما هيجه أحد بني فقيم إذ دخل كنيسته ونجسها[3]. ويبطل هذه الرواية سائر أحوال أبرهة وتعصبه في دينه. فإنه لما استولى على اليمن قتل أميرها ارياطا اليهودي، وأبطل اليهودية من اليمن، وبنى كنيسة لم ير مثلها[4]. ثم كتب إلى النجاشي: "إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليه حاج العرب"[5].

فإن صح ذلك فالظاهر أن أبرهة لم يمكنه صرف العرب عن الكعبة، لما أنهم نشأوا على حبها القديم، وعلموا أنها بناء أبيهم إبراهيم. فلما رأى أن الكعبة عقبة كئود في طريقه عزم على هدمها. فذلك أمر وقع

---

(1) ابن هشام ١: ٤٠

(2) انظر ابن هشام ٣٩-٤٠. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤، ٢: ١٣٢، وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

(3) ابن هشام ٣٨-٣٩. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٣، وتاريخه ٢: ١٣٠-١٣١ .

(4) ابن هشام ١: ٣٦، وتاريخ الأمم والملوك ٢: ١٢٨-١٣١ .

(5) المصادر السابقة .

على مجرى الطباع وحوادث الأمور.

والذين وضعوا قصة التنجيس ورووها إنما وضعوها لأحد أمرين: إما لمحض التماس سبب لغضب أبرهة، ولم يخطر ببالهم شيء غيرها. أو لحسن ظنهم به، فنسبوا مجيئه إلى ما يكون عذراً لجراءته على هذا الأمر العظيم. ويؤيد ذلك أن من الروايات ما يأتي بقصة أخرى، وهي هذه (من الدر المنثور للسيوطي):

"أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس قال: كان من حديث أصحاب الفيل أن أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن وأن ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجا. فلما انصرف من مكة نزل في كنيسة بنجران، فعدا عليها ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلي وأخذوا متاع اكسوم، فانصرف إلى جده مغضبا. فبعث رجلا من أصحابه يقال له شهر بن معقود على عشرين ألفا من خولان والاشعريين"[1].

واكتفى صاحب الدر المنثور بهذه الرواية في سبب مجيء أصحاب الفيل. ودلائل الكذب فيها ظاهرة لأهل النظر. وأيما كان، فلا حاجة إلى أمثال هذه الروايات السخيفة المنكرة مع وجود الأخبار التي توافق الأمور المعلومة من سيرة أبرهة ومجارى الطباع عموما.

والسابع: إن القرآن صرح بكيد أصحاب الفيل، وما زعموا من مجئ أبرهة ليس فيه كيد. إنما هو مجاهرة بالقدرة وإرغام لجميع العرب. وأما على ما يستنبط من الروايات الموثوق بها فيثبت منه كيده من وجوه:

---

1 الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي ٦: ٣٩٤ (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٤هـ).

الأول: إنه جاء في الأشهر الحرم إذ ظن أن العرب تمسك فيها عن القتال وحمل السلاح.

والثاني: إنه أراد دخول مكة حين تخلو من أهلها وهم مع سائر العرب في حجهم.

والثالث: إنه أراد الهجوم عليهم خاصة في أيام التشريق، والعرب حينئذ إما واقفون بمنى أو مسرعون إلى أوطانهم بعد طول الشعث والكلال والسآمة. وعلى هذا فانظر كيف ضلل الرب تعالى كيده:

١. إذ حبس جيشه ببطن محسر.
٢. وإذ جعل للعرب سلاحا من حجارة المحصب.
٣. وإذ أرسل عليهم حاصبا من السماء.

فاتضح مما ذكرنا أن أهل مكة دافعوا أصحاب الفيل عن بيت الله، ورموهم بالحجارة، ولا مانع لهم عن ذلك. وإن ما ذكروا من حلم أبرهة، ورفعة قدره يبطله المنقول والمعقول والقرآن. والحمد لله.

(٨)

النظرة الثانية –وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام

لا شك أن رمي أصحاب الفيل بالحجارة كانت من الآيات العظام على عظيم منزلة الكعبة، والبعثة المحمدية. فإن نبينا ﷺ ولد في هذا العام. ولكن عظمة هذه الآية ليست في كونها عجيبة ونادرة بعيدة عن العادة، بل إنها جاءت حسب سنة الله تعالى في إنزال آياته.

فإن من ينظر في مجارى الخوارق يجد أن الله تعالى لا يترك جانب

التحجب في الإتيان بها، كما هي سنته في سائر ما يخلق. لأن حكمته جعلت لنا برزخا بين عالمي الغيب والشهادة، وسن لنا التشبث بالأسباب مع التوجه إلى ربها، ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا. فالمؤمن يضمحل عنه غمام الأسباب، والكافر يبقى في ظلماتها غير خارج منها. فبإجراء الخوارق على سنة سائر الخلق يجعلها واسطة لفهم أمره الذي هو قوام كل خلق، كما قال: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ [سورة النمل/٨٨].

ولذلك لا ترى للخوارق اسما على حدة. فإن الله تعالى يسميها الآيات كما يسمي سائر مظاهر قدرته آيات، غير أنه ربما يسميها "آيات بينات" نظرا إلى العامة، وإلا فعند أولى البصيرة كلها بينات.

هذا، وبسط القول في كتاب "عيون العقائد"[1].

فإن كنت موقنا بأن الله تعالى هو المتصرف في العالم، وملائكته ينفذون كلماته، وكل شئ من الخلق يجري حسب أوامره على سنن حكمته كنت أهلا للنظر والتأمل في آيات الله، لتزداد خشية وحكمة.

فاعلم أن لهذه واقعة الفيل نظائر في القرآن والصحف. وهي مما تبين المشابهة بين موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

الأول: ما وقع في غزوة بدر. فإن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشا، ثم قال: "شاهت الوجوه" ثم نفحهم بها وقال لأصحابه: "شدوا"[2]. فلم يبق كافر إلا شغل بعينه، كما جاء في سورة

---

[1] وهو مطبوع .

[2] انظر ابن هشام ٢: ٢٠٣ .

الأنفال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الآية/١٧]. فجعل الله تعالى رمى النبي سببا ظاهرا لما رماهم، حتى شغل كل واحد منهم بعينه. فكان هناك رميان: رمى من النبي رأوه، و ورمي من الله تعالى لم يروه، ولكن رأوا أثره. ولذلك جاء النفي والإثبات معا.

وكذلك في هذه السورة. كانت قريش ترميهم بحجارة ينفحونهم بها عن الكعبة، فجعلها الله حجابا لما أرسل على أصحاب الفيل من الحجارة من السماء. وكما نسب الله تعالى الرمي في بدر إلى نفسه في قوله: ﴿ولكن الله رمى﴾، فهكذا ههنا نسب إلى نفسه أنه جعلهم كعصف مأكول. فلا شك إنها كانت من الآيات البينات. فإن منافحة قريش كانت أضعف من أن يفل هذا الجيش، فكيف يحطمهم حتى صاروا كعصف مأكول.

والثاني: إن هذه الآية تشبه الآية السادسة من تسع آيات موسى عليه السلام، كما جاء في سفر الخروج (٩: ٨-١١):

"٨ ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملأ أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون. ٩ ليصير غبارا على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر ١٠ فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم. ١١ ولم تستطع السحرة أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت في السحرة وفي كل مصريين".

فهكذا كان الأثر من الحجارة على أصحاب الفيل. فروى عن عكرمة رضي الله عنه أنه "من أصابته أصابه جدري" (١). وهكذا قول ابن عباس

(١) انظر الطبري ٣٠: ١٩٣ .

وسعيد بن جبير رضي الله عنهما (١) ولكن دمامل المصريين لم تكن مهلكة. فأما الجدري الذي أصاب أصحاب الفيل أهلك أكثرهم هناك، والباقين في الطريق، كما روى أنهم "خرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل"(٢).

والثالث: إنها تشبه الآية الثامنة من آيات موسى عليه السلام. فإن الله تعالى أرسل من البحر طيورا جوارح عظاما، لتأكلهم وتطهر جانب مكة من جيف الأفيال وأصحابها التي لو بقيت لم يكن لقريش أن يسكنوها إلى مدة. وقد جاء في سفر الخروج (١٠: ١٢-١٩):

"١٢ ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد. ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البرد. ١٣ فمد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. ١٤ فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر. شئ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. ١٥ وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد حتى لم يبق شئ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر. ١٦ فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما ١٧ والآن اصفحا عن خطيئتي هذه المرة فقط وصليا إلى الرب إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط. ١٨ فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب. ١٩ فرد الرب ريحا

(١) المرجع السابق .

(٢) ابن هشام ١: ٥٤ وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦ .

غريبة شديدة جدا. فحملت الجراد وطرحته إلى البحر الأحمر[1]".

فهكذا جاءت الطير من جهة البحر، ولم ير مثلها، وكانت كثيرة أبابيل. وكما أكلت الجراد مما حطمه البرد فكذلك أكلت هذه الطيور جثث تلك الملحدين. فكانوا كعصف أكلته جراد موسى عليه السلام و هذا أمر الطير هو الجزء الثالث من قصة أصحاب الفيل، فنبحث عنه في الفصل التالي بالتفصيل.

(٩)

النظرة الثالثة وهي فيما كان من أمر الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل

إنما قلنا إن الله تعالى أرسل طيورا لتطهير ناحية مكة من جيف القتلى. والمشهور أن الطير أرسلت لرميهم بالحجارة. فاعلم أن النظر في الروايات يكشف عن فريقين متباينين في تصوير هذه القصة. وقبل ترجيح أحدهما على الآخر نسرد مواقع الاختلاف.

أما الفريق الأول فيروي:

١ – أن الطير جوارح كبارا.

٢ – و أن لها لونا وشكلا كذا وكذا.

٣ – وأنها أكلت أصحاب الفيل.

٤ – وأن الحجارة أصابتهم من كل جانب.

٥ – وأنها أحدثت الجدري بإصابتها أجسامهم.

٦ – وأنهم أهلكوا حينا فحينا في فرارهم حتى أنهم تساقطوا على

[1] في الترجمة البيروتية" بحر سوف" .

كل منهل.

وأما الفريق الثاني فيروي:

١ – أن الطير كانت ترميهم بالحجارة.

٢ – وأنها حملت هذه الحجارة بمناقيرها و أظافيرها.

٣ – وأن هذه الحجارة نفذت في أجسام الراكبين حتى نفذت في أجسام الفيل.

٤ – ولابد أنهم هلكوا حيث كانوا.

٥ – وأن سيلا جاء فذهب بجثث القتلى.

فلا تنس هذه الأمور. والآن نذكر كلا القسمين من الأخبار من تفسير ابن جرير رحمه الله. وإنما اقتصرنا عليه، وتركنا المؤلفات التي تجمع الروايات الملفقة من غير تنبيه على ضعفها وتلفيقها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله:

"حدثنا يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال: كانت طيرا خضرا خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع".

أيضا:

"حدثني يعقوب قال حدثنا ابن علية عن ابن عون عن محمد بن سيرين في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال قال ابن عباس: هي طير وكانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب".

ورواها أيضا عن ابن عباس بطرق عديدة[1].

[1] تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢ .

ذلك، واعلم أن الخرطوم يستعمل لمنقار الجوارح، كما قال امرؤ القيس:

كأنها لقوة طلوب　　　كأن خرطومها منشال

وروى ابن جرير أيضا:

"حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي قال حدثنا فضيل بن عياض عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿طيرا أبابيل﴾ قال: طير خضر لها مناقير صفر تختلف عليهم"[٢].

فالرواية عن عكرمة وابن عباس تخبر بأن الطير كانت جوارح كبارا كالعقبان و الرخم. وفي رواية ابن جبير تصريح بأنها كانت تأكلهم. وليس في هذه الروايات أنها حملت الحجارة.

ثم نجد رواية عن قتادة وعبيد بن عمير أنها حملت الحجارة في أظفارها ومناقيرها، ولا تذكر صفة تدل على كونها جوارح[٣]. وأما الروايات التي جمعت الأمرين فليس إلا من إدخال بعض الرواية في بعض. فإن الرواة ربما كانوا يلفقون. وصرح به ابن جرير في تاريخه حيث بدأ هذه القصة بقوله: "دخل حديث بعضهم في حديث بعض"[٤].

هذا، والآن نتأمل في هاتين الرواتين. فنقول: إن الأخبار بشكل الطير ولونها، وأن مناقيرها الصفر كانت تختلف عليهم لا يكون إلا برؤية

---

[١] ديوانه: ١٩٢ .

[٢] تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢.

[٣] انظر المصدر السابق ٣٠: ١٩٢.

[٤] تاريخ الملوك ٢: ١٣٧.

العين. وأما الأخبار بحملها الحجارة في مناقيرها وأظفارها فقصارى أمره أن يكون إما ممن رأى نزول الحجارة من السماء وظن من بعيد أنها تأتي من الطير، أو ممن ظن أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ترميهم﴾ يرجع إلى الطير، فروى القصة حسبما فهم من تأويل الآية، وليس له معول على علم بالوقعة.

ثم كان بعض من أخذ بهذا الرأي تفطن لما فيه من الإشكال. فإن جثث الفيلة والقتلى ملأت ناحية بطحاء مكة، فكيف أمكن لأهل هذه البقاع أن يسكنوها، ففزعوا إلى رأي آخر. وهو أن الله تعالى أرسل سيلا فطهر الأرض[١]. ولا يخفى أن السيل الذي يذهب بجثث هذه الأفيال وهذا الجند الكثيف لا يترك سكان هذه البطحاء. فهذا أيضا من الرأي، وليس في شئ من رواية الخبر عن الرؤية والعلم.

ثم أهل هذا الرأي وجدوا إشكالا آخر. وهو أن الحجارة النازلة من مناقير الطير و أظافيرها تنزل مستقيمة، فكيف تصيب الفيل مع أن جسمه حتى رأسه محفوف بالراكبين. فزعموا أن الحجارة نفذت الراكبين ثم أصابت الفيل ونفذت أجسامها[٢].

ثم لابد لهم أن يفرضوا أن الحجارة أصابت جند أبرهة وأهلكه على مكانه، وأن ينسبوا الإهلاك إلى محض جراحات الحجارة. ولكن رواية

---

[١] انظر تاريخ الطبري ٢: ١٣٨. والكامل في التاريخ لابن الأثير ١: ٢٦٣ ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

[٢] انظر تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٥ .

الفريق الأول تصرح بأن من أصابته الحجارة رمى بالحصبة [1]، و لم يهلكوا كلهم بالفور، بل فروا وجعلوا يتساقطون على كل منهل[2]. فتبين أن كل ما ذهب إليه الفريق الثاني ليس إلا ما يتفرع على رأي رمي الطير. ففرض ما يناسبه، و لم يأخذ علمه من الواقعات المشهودة المروية من الذين شاهدوها.

والآن نذكر أقوال الذين شهدوا هذه الواقعة ورأوها بأعينهم.

(١٠)
الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح

قد مر في الفصل السادس أن أسلوب الكلام في هذه السورة يدل على أن واقعة الفيل كانت مما علمته العرب واستيقنته، فلم يذكرها القرآن بتفاصيلها لعدم الفائدة فيه. وإنما أراد به إقامة الحجة عليهم، كما ذكرهم بوقائع الأمم المهلكة.

والآن نذكر تصديق ذلك من أشعار العرب ونستدل بها على صورة الواقعة، فإنهم شهدوا الواقعة بأعينهم. وهذه الأبيات مذكورة في سيرة ابن هشام وكتب أخر. قال أبو قيس:

ومن صنعه يوم فيل الحبو ش إذ كلما بعثوه رزم
محاجنهم تحت أقرابه وقد كلموا أنفه فانخرم

[1] انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٣ .
[2] انظر ابن هشام ١: ٤٥، والطبري ٣٠: ١٩٦ .

وقد جعلوا سوطه مغولا[1] إذا يمموه قفاه كلم
فأرسل من ربهم حاصب[2] يلفهم مثل لف القزم[3]

وقال أيضا صيفي بن عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، وهو جاهلي من أهل يثرب:

قوموا فصلوا ربكم و تعوذوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم جنود الإله بين ساف وحاصب
فولوا سراعا نادمين و لم يؤب إلى أهله ملحيش غير عصائب[4]

وقال طفيل الغنوى، وهو جاهلي:

ترعى مذانب وسمي أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل[5]

وقال أبو الصلت، وهو أبو أمية بن أبي الصلت. وهو ثقفي طائفي جاهلي. ولثقيف يومئذ اللات والغبغب وبيت له سدنة يضاهئون بذلك قريشا.

[1] ويروى "معولا" (بالعين المهملة) وهي الفأس. انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٧: ١٩٦ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) دار الجيل ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
[2] في الحيوان "من فوقهم حاصبا" ٧: ١٩٦، وروى مثل ذلك في سيرة ابن هشام ١: ٤٩ .
[3] كتاب الحيوان ٧: ١٩٦. وابن هشام ١: ٤٩ ، وفيه: "فلفّهم" .
[4] الحيوان ٧: ١٩٧، وابن هشام ١: ٤٩-٥٠.
[5] الحيوان ٧: ١٩٧.

إن آيات ربنا بينات — لا يماري بهن إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى — ظل يحبو كأنه معقور

واضعا حلقة الجران كما قط — ر صخر من كبكب محدور[1]

قال بعضهم [2] لأبرهة الأشرم:

أين المفر و الإله الطالب — والأشرم المغلوب غير الغالب[3]

وقال عبد المطلب، وهو على حراء:

لا هم إن المرء يمـ — ـنع رحله فامنع رحالك[4]

لا يغلبن صليبهم — و محالهم أبدا محالك

إن كنت تاركهم وقبـ — ـلتنا فأمر ما بدا لك[5]

وقال نُفيل بن حبيب الخثعمي، وهو جاهلي، شهد الواقعة:

ألا ردي جمالك يا ردينا — نعمنا كم مع الإصباح عينا

فإنك لو رأيت ولن تريه — إلى جنب المحصب ما رأينا

أكل الناس يسأل عن نفيل — كأن عليّ للحبشان دينا

حمدت الله إذ عاينت طيرا — وحصب حجارة تلقي علينا [6]

---

[1] الحيوان ٧: ١٩٨. وفيه: "ما يماري فيهن".

[2] هو نفيل بن حبيب. انظر الحيوان ٧: ١٩٨، وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦، وابن هشام ١: ٤٤.

[3] الحيوان ٧: ١٩٨، والطبري ٣٠: ١٩٦، وابن هشام ١: ٤٥.

[4] ويروى "حلالك" انظر الحيوان ٧: ١٩٨، والطبري ٣٠: ١٩٥ .

[5] الحيوان ٧: ١٩٨-١٩٩ .

[6] الحيوان ٧: ١٩٩. وفيه: "أن عاينت" .

وقال المغيرة بن عبد الله المخزومي:

أنت حبست الفيل بالمغمس — حبسته كأنه مكردس

محتبس تزهق فيه الأنفس[1]

فإن تأملت فيما مر من كلام العرب وجدت الذين شهدوا الواقعة ذكروا الطير وحصب الحجارة معا. لكنهم لم ينسبوا الحصب إليها، بل نسبوه إلى حاصب وساف. و"الحاصب" يستعمل للهواء والريح الشديدة التي ترمي بالحصباء، والسحاب الذي يرمي بالبرد و الثلج [2]. ذكر الله عذاب قوم لوط، فقال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ [سورة القمر/٣٤].

وقال المفسرون فيه: أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها. وفي حديث علي ﷺ قال للخوارج: "أصابكم حاصب" [3]. وقال أهل اللغة في تفسيره: "أي عذاب من الله، وأصله رميتم بالحصباء من السماء" [4]

ثم إنهم نسبوه إلى "ساف". ومحال أن يحمل هذا اللفظ على الطير. فإن السافي يستعمل للريح التي تذرى الغبار والورق اليابس[5]. وهذا الغبار أيضا يسمى "سافيا" من السفي، وهو الخفة. والطير لا تحمل الغبار بالمنقار والأظفار، تذريه. فلا سبيل لإطلاق "السافي" على الطير.

---

[1] المصدر السابق .

[2] انظر لسان العرب (حصب) .

[3] وفي لسان العرب (حصب): "وقيل حاصبا أي ريحا تقلع الحصباء لقوتها".

[4] لسان العرب (حصب).

[5] لسان العرب (حصب).

ثم إنهم مصرحون بأن أصحاب الفيل فروا، وولوا سراعا. فلو نفذت الحجارة النازلة لهلكوا حيث كانوا. وأمر الريح في ذلك اليوم كان عجيبا، فكان حريا بالذكر. ولذلك ترى ذا الرمة ذكره وصوره، كما مر في الفصل السابع.

وبالجملة فلابد أن الله تعالى رماهم بالحصباء والغبار من السماء والهواء، كما رمى قوم لوط، فأصابت أجسامهم من كل جهة. وكان ذلك بتصريف ملائكة الله، وهذا هو المراد بجنود الله. وبذلك جاء الإشهاد في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿والذاريات ذروا﴾ [سورة الذاريات/١]، وأيضا: ﴿والمرسلات عرفا﴾ [سورة المرسلات/١]. كما بينا في تفسير سورة الذاريات.

فإن قيل: إنهم لم يذكروا أن الطير كانت تأكلهم، قلنا: قد جاء ذكر ذلك كناية وصراحة في روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبير ﷺ[1]. وأما الشعراء فكثيرا ما يكتفون بالكناية عن التصريح، وبالإجمال عن التفصيل.

وقد ذكر بعضهم أنه رأى طيرا. ومعلوم عند العرب أن سباع الطير كانت تجتمع على مصارع القتلى. وربما استدلوا بذلك على وقوع القتل، كما استدل عمرو بن أمية على قتل أصحاب الرجيع[2]. وأن شاعرهم ربما يصف جيشا عظيما، فيذكر أن الطير تصحبه لعلمها بكثرة

---

[1] انظر الطبري ٣٠: ١٩٢ .

[2] قال ابن اسحاق: "فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: إن لهذه الطير لشأنا. فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم" ابن هشام ٢: ١٨٥.

القتلى ؛ لما للحيوانات من الفراسات، ولكثرة ما جربن. قال النابغة يصف عمرو بن الحارث الغساني وقبيلته:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها ... جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب[1]

وأخذ أبو نواس منه، فقال:

تتأيّ الطير غدوته ... ثقة بالشبع من جزره[2]

ففي ذكر الطير مع جيش غناء عندهم عن ذكر أكلها إياهم. ومجئ هذا الصنف من الطير وأكلهم مما لا شك في وقوعه، فهو أولى بالمصير إليه. فإنه لا يخفى أن هذا الجيش الثقيل المدلهم بحبشانه العظام وأفياله الضخام كان كقطعة ليل مظلم في بياض قيعان العرب. ولم تكن الطير الجوارح رأت مثل ذلك، فجلب العقبان والرخم القشاعم من صحارى أفريقية، كما يدل عليه ما روى من أنها خرجت من البحر[3]، فاجتمعن عليهم محلقة فوقهم.

فإن قيل: فهذا أمر وقع حسب العادة، فلم يكن حريا بالذكر. قلنا: قد ذكر الله تعالى إهلاك قوم نوح ولوط وعاد وثمود بأسباب عادية. ولا شك إن في ذلك لآيات على رحمته ونقمته.

وقد أكثر في القرآن من ذكر آياته في اختلاف الليل والنهار،

---

[1] ديوانه: ٤٢-٤٣.

[2] ديوانه: ٦٩.

[3] انظر الطبري ٣٠: ١٩٢، وابن كثير ٤: ٥٥٥ .

وتصريف الرياح والسحب، وتقدير الشمس والقمر. ولا شك أنها أمور تجري حسب العادة. فكما ذكر هذه الأمور ذكر إهلاكه أصحاب الفيل، وأنه جعله إياهم طعمة لطير أبابيل، وإن في ذلك لآية ظاهرة. فإنه تعالى منع بلده المحرم وأهل البلد بما صب على أعدائه من الحصباء والتراب، وطهر جوار مكة من جيف الصرعى بما أرسل عليهم من طير أبابيل تأكلهم.

ثم فيه آية عظيمة على مولد النبي الذي بشرت به الكتب الأولى. وسنذكرها الآن.

(١١)

في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا ﷺ

مما يؤيد قولنا في أمر الطير ما جاء في مكاشفات يحيى عليه السلام، فإنه بعد ذكر عيسى عليه السلام وأتباعه جاء بذكر خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم، وما يقع بعده إلى يوم القيامة. وقال فيه أن الله يطعم طيور السماء[١]. وذكرنا في تفسير سورة الماعون أن هاشما سن هذه السنة، وكان يسمى "مطعم طير السماء". فكان هذا من البشارات على قرب مولد نبينا ﷺ عند من كان قد علم بما ذكر يحيى عليه السلام في مكاشفاته. وذلك قوله:

"[١١]ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أشهب[٢] والجالس عليه

[١] انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٩: ١٧ .

[٢] في الترجمة البيروتية: "أبيض" .

يدعى أمينا وصادقا وبالعدل يحكم ويحارب.[١٢] وعيناه كلهب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو.[١٣] وهو متسربل بثوب مغموس بدم (أي هو نبي الملحمة. وأيضا كان ثوبه أحمر حين جاء لفتح مكة) ويدعي اسمه كلمة الله (لعل ذلك زيادة من الناقلين ليجعل هذه الأمور لعيسى عليه السلام، وسائر الأمور أبعد شئ من أحواله، أو لعل الأرواح الطيبات تطلق عليها اسم كلمة الله).[١٤] وجنود السماء[١] كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقيا (كما وقع في بدر).[١٥] ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم (أي القرآن الحكيم) وهو سيرعاهم بعصا من حديد (في ذلك رحمة الرعاة وشدة العدل. والشدة على الكفار ومن استحق الغلظة من أهل الكتاب بعصيانهم، حسبما يفعل الله بالمجرمين ليرجعوا. وهو كما أخبر عنه موسى عليه السلام أن ذلك النبي ليغلظ على العصاة. وصورته خلاقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شئ (كما تراه حين وقف على باب الكعبة خطيبا يوم الفتح، فقال في خطبته: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج" وهكذا في خطبته بالعرفة: "ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع" (رواه مسلم) فداس تحت قدميه أمور الجاهلية. ولهذه العلامة شرح طويل، ليس هذا محله)[١٦] وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب. (لعله: "رأس الخلفاء" و"سيد السادات" أو مشابهه)[١٧] ورأيت

[١] في الترجمة البيروتية: "والأجناد والذين في السماء" .

ملاكا واحدا واقفا في الشمس فصرخ بصوت عظيم قائلا لجميع الطيور الطائرة في وسط السماء هلم اجتمعي إلى عشاء الإله العظيم[١٨] لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قواد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكل حرا وعبدا صغيرا وكبيرا"[١].

وبعد ذلك أمور يشبه بحالات النبي الهاشمي، وليس هذا محل ذكره. وإنما بدأت من أول هذه البشارة لكي يتضح مطابقتها بأحوال نبينا ﷺ.

فلما قدم النبي ﷺ هذه دار الدنيا وقربت ولادته دعا الله الطيور لعشائه العظيم. فإن قلت: ألا ترى أن هذه بشارة تقع في آخر الزمان، قلنا: بلى، ولكن الله تعالى قدم مثلها في إبان أمره لتطمئن بما هو الموعود من هلاك أعدائه حين جاءوا على مدينته المحبوبة، ولتكون تنبيها لمن جحد لعله يرجع. وذلك حسب سنة الله في تنبيهه عباده، كما قال تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾. [سورة السجدة/٢١].

(١٢)

أسباب صارفة عن التأويل الراجح

لا يخفى أن التفصيل الذي اشتهر من قصة أصحاب الفيل صار سدا دون التأويل الراجح. فبعد ما دللنا على خطأ ما اشتهر نذكر بعض أسباب هذه الشهرة، وأيضا ما انضم إليها من أمور أخر مما صرف عن التأويل الصحيح. فإن لكل شئ سببا، ولابد من ذكر هذه الأسباب، ليتضح وهنها، وهي ستة.

---

[١] رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٩: ١١-١٨.

أما الأول- فإنهم ظنوا أن الخطاب في السورة إلى النبي ﷺ، فلم يمكنهم تأويل كلمة: ﴿ترميهم﴾ إلى الخطاب، فإن النبي ﷺ لم يكن يرميهم. ولكنا بينا في الفصل الثاني أن الخطاب ههنا إلى أفراد أهل مكة. وكلمة "ترميهم" حال عن المجرور في "عليهم"، أو جملة مستأنفة. والمعنى على الحالية يكون: ألم تر أيها المخاطب كيف أرسل ربك عليهم طيرا أبابيل حال أنت ترميهم بالحجارة. وعلى الاستئناف يكون: كنت ترميهم بحجارة، فجعلهم الرب كعصف مأكول. والمآل واحد مع فرق لطيف بين الأسلوبين. فإن الحال تشير إلى إسراع الطير الخاطفة وسرعة هلاكهم برمي الحجارة. والاستئناف يدل على كبر الأثر. فإن حجارة من طين لا يتوقع منها صيرورتهم كعصف مأكول. ولعل من لم يمارس كلام العرب يستبعد هذين التركيبين من جهة النحو. فنذكر ما سيقال على كلا التركيبين في ذكر السبب الثاني والثالث.

أما الثاني- فعسى أن يتوهم أن الحال إنما تبين هيئة الفاعل أو المفعول، والضمير في "عليهم" إنما هو مجرور، لا فاعل ولا مفعول. فنقول: إنما مراد النحويين أن الحال يبين هيئة الشئ عند حدوث أمر، والحدوث يعبر عنه بالفعل. فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل أو المفعول فزعوا إلى تقديرات شتى. وحقيقة الأمر أن مجئ الحال عن المجرور ذائع شائع، كما دل عليه القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ [سورة ق/٤٤]، فـ سراعا حال عن الضمير المجرور في "عنهم".

وقال امرؤ القيس يصف فرسه:

فلما أجن الشمس عني غيارها ... نزلت إليه قائما بالحضيض[١]

---

[١] ديوانه: ٧٤ .

وأيضا:

كأن سراته لدى البيت قائما   مداك عروس أو صلاية حنظل[1]

وقال الأعشى:

وقيامي عليه غير مضيع   قائما بالغدو والآصال[2]

وقال لبيد:

باتت وأسبل واكف من ديمة   يروى الخمائل دائما تسجامها[3]

وقال نابغة بني جعدة:

تلألأ كالشعرى العبور توقدت   وكان عماء دونها فتحسرا[4]

وأيضا:

و نهنهته حتى لبست مفاضة   مضاعفة كالنهي ريح وأمطرا[5]

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وليأتين عليك يوم مرة   يبكي عليك مقنعا لا تسمع[6]

ولنكتف بهذا القدر، فإنه كثير جدا.

وأما الثالث – فعلى تأويل "ترميهم" إلى الاستئناف عسى أن

---

[1] جمهرة أشعار العرب: ٢٦٦، وانظر شروح المعلقات. وفي رواية الديوان: ٢١:

كان على اللتفين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صراية حنظل

[2] ديوانه: ، وجمهرة أشعار العرب: ٣٤٢ .

[3] ديوانه: ٢١٩ وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٥ .

[4] جمهرة أشعار العرب: ٧٧٩ .

[5] المرجع السابق: ٧٨١

[6] المرجع السابق: ٦٨٥ .

يتوهم أن مقتضى المعنى أن يؤتى بالماضي، و"ترميهم" مضارع. فنقول: نعم، ولكن "ترميهم" أصله: كنت ترميهم. وحذف الأفعال الناقصة قبل المضارع أسلوب عام، وله مواقع، لا يحسن فيها إلا الحذف، كما بيناه في كتاب الأساليب.

وأما ههنا فنقتصر على بعض الأمثلة من القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿سخرنا عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [سورة الحاقة/٧]. أي فلو كنت هناك أيها المخاطب لظللت ترى القوم الخ. وقال متمم بن نويرة:

تقول ابنة العمرى: مالك بعدما   أراك قديما ناعم الوجه أفرعا[1]

أي بعد ما كنت أراك. وقال خداش بن زهير بن ربيعة:

قفار وقد ترعى بها أم رافع   مذانبها بين الأسلة والصخر[2]

أي وقد كانت ترعى. وقال اعشى بكر بن وائل:

فلئن شط بي المزار، لقد أضـ   ـحى قليل الهموم، ناعم بال[3]

أي لقد كنت أضحى. وقال القطامى:

كانت منازل منا قد نحل بها   حتى تغير دهر خائن خبل[4]

أي كنا نحل بها. وقال الحطيئة:

تركت المياه من تميم بلاقعا   بما قد ترى منهم حلولا كراكرا[1]

---

[1] جمهرة أشعار العرب: ٧٥٣ .

[2] المرجع السابق: ٥٢٤ .

[3] ديوانه: جمهرة أشعار العرب: ٣٢٥ .

[4] جمهرة أشعار العرب: ٨٠٥ .

أي بما قد كنت ترى.

فتبين أنه لا إشكال في تأويلنا سواء جعلت "ترميهم" حالا أو استئنافا. ولا بأس باحتمال تركيبين عند اتحاد المعنى.

وأما الرابع- فإن رمي الطير الحجارة كان أعجب إلى النفوس وأبين خرقا للعادة، فاشتهر بين الناس. فإن الجمهور يخرون على العجائب صما وعميانا، ويظنون البحث عنها والأخذ بأوثق الروايات فيها خلاف التقوى. وقد علمت أن المعجزة لا تلزمها النكارة والندرة، بل الحمل على النظائر أولى. وقد علمنا أن موسى عليه السلام ذرا الرماد بيده، ومحمد عليه الصلاة والسلام رمى الحصباء إلى وجوه الكفار بيده ؛ ومع ذلك كانتا آيتين عظيمتين. وقد بينا أن الخوارق تنزل تحت حجاب.

وأما الخامس- فإن بعض الذين شاهدوا الواقعة ذكروا الطير والحجارة معا. فتوهم بعض السامعين أن الطير هي التي رمت. ويمكن أيضا أن بعض الشاهدين أنفسهم لم يفهموا إلا أن الطير رمتهم، فذكروا حسبما ظنوا. وعذرهم بين، فإن رمى أهل مكة لم يكن جديرا بما رأوا من الآثار على الأعداء، فأيقنوا برمي من السماء. ولم يروا في السماء إلا طيرا أبابيل، فنسبوا هذا الرمي إليهن. ثم من سمع بهذه الرواية حمل الآية عليها. ولا شك أن حمل ذلك على رمي من السماء في حجاب رمي العرب أولى، كما مر في الفصل الثامن.

أما السادس- فإن الوضاعين افتروا أخبارا كاذبة فيما جرى بين أبرهة وعبد المطلب. واعتمد عليها المفسرون مع غاية وهنها من جهة

[1] ديوانه: ١٨٥ .

السند والدراية، كما مر، لعدم مبالاتهم بالتنقيب في القصص. فلما ركز في قلوبهم أن أهل مكة فروا عن حماية الكعبة إلى شعف الجبال متحرزين عن جيش أبرهة صار ذلك سدا عن حمل "ترميهم" على الخطاب. ولم يبق لهم إلا أن يقولوا بأن فاعل "ترميهم" هو الطير.

وأما السابع- فإن كلمة: ﴿ترميهم﴾ متصلة بكلمة: ﴿طيرا أبابيل﴾، فتبادر إلى أفهامهم أن ضمير الفاعل راجع إلى الطير. وترك المتبادر إنما يقع بعد النظر والتأمل. وإنما يتجشمون التأمل إذا رأوا إشكالا ظاهرا، وليس ههنا إشكال ظاهر. فاشتهر هذا التأويل مع بعده بعد النظر في الأمور والتأمل فيها. هذا، والله تعالى أعلم.

(١٣)

بيان معنى الرمي بالحجارة

وتمهيد للنظر في أصل رمى الجمار بمنى

اعلم أن الرمي بالحجارة والتراب في وجوه الأعداء هو إظهار اللعنة والدعاء عليهم. ولذلك حين رمى النبي ﷺ الأعداء بالحصباء، قال: "شاهت الوجوه"، كما يقال قبح الله وجهك في موقع اللعن. وتقول العرب: "بينهم قذيفى" و هي سباب ورمى بالحجارة ولذلك يسمى قذف المحصنات قذفا. بل "اللعن" نفسه مأخوذ من "رمى الحجارة. فإنه في أصل معناه: الطرد[1]، كما ترمي الكلب بالحجر فتطرده.

وكانوا يظهرون اللعنة برمي الحجارة من قديم الزمان. فتجده في

[1] انظر المجاز ١: ٤٦، والطبري ٢: ٣٢٨، واللسان.

الإسرائيليين أيضا، كما جاء في السفر الثاني لسموئيل (١٦: ٥-١٤):

"[٥]ولما جاء الملك داؤد إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول (طالوت) اسمه شمعي بن جيرا. يسب وهو يخرج [٦] ويرشق بالحجارة داؤد وجميع عبيد الملك داؤد وجميع الشعب وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره.[٧] وهكذا كان شمعي يقول في سبه اخرج اخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال.[٨] قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضا عنه وقد دفع الرب المملكة ليد أبشا لوم ابنك وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء.[٩] فقال أبيشاى بن صروية للملك لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدي الملك دعني أعبر فأقطع رأسه.[١٠] فقال الملك مالي ولكم يا بني صروية. دعوه يسب لأن الرب قال له سب داؤد ومن يقول لماذا تفعل هكذا.[١١] وقال داؤد لأبيشاي ولجميع عبيده هو ذا ابني الذي خرج من أحشائي يطلب نفسي فكم بالحرى الآن بنياميني. دعوه يسب لأن الرب قال له.[١٢] لعل الرب ينظر إلى مذلتي ويكافئني الرب خيرا عوض مسبته بهذا اليوم.[١٣] وإذ كان داؤد ورجاله يسيرون في الطريق كان شمعي يسير في جانب الجبل مقابله ويسب وهو سائر ويرشق بالحجارة مقابله ويذري التراب.١٤ وجاء الملك وكل الشعب الذين معه وقد أعيوا فاستراحوا هناك".

إنما الاستناد بأول هذا الكلام وآخره، وأوردته بأجمعه لفوائد.

ويشبه ذلك ما وقع بالنبي ﷺ وأصحابه من مربع بن قيظي الأعمى المنافق وهم مارون إلى أحد. فلما كانوا عند حائط له وسمع حسهم قام يحثو التراب في وجوههم. فابتدره القوم ليقتلوه. فنهاهم رسول الله ﷺ، وقال:

لا تفعلوا، فهذا الأعمى البصر الأعمى القلب، ومضى.

ولذلك جعل الله الرجم أسوء القتل، فجعلها لكبار الذنوب. ولذلك ترى في التوراة جعل الرجم للعقوق والغلول، ليضم اللعنة بالعذاب. ولذلك ترى قوم لوط عذبهم الله بمطر الحجارة.

فهكذا ههنا عذب هؤلاء الظالمين برمي الحجارة ليدل على كونهم ملعونين. وإنما كبر هذا الإثم منهم، لأنهم بادعائهم النصرانية كانت حرمة هذا البيت واجبة عليهم لكونه بناء إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [سورة البقرة/١١٤].

ولذلك رمى الله الكفار ببدر لمنعهم المسلمين عن الصلاة عند البيت. ومن ههنا "الرجيم" جاء وصفا للشيطان. فإن الرجم هو الرمي بالحجارة، وإنما صار ذلك وصفا، لما أنه أكبر الملعونين، ولما طرده الله تعالى من الجنة لعصيانه وعتوه، فقال تعالى: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ [سورة الحجر/٣٥]. ففسر الرجيم بما وضعه بين الإخراج واللعنة.

ولما كان الشيطان رأس الملعونين تبادر إلى الأذهان أن رمي الجمار عند الوقوف بمنى هو على الشيطان. فنشأت قصة مكره بإبراهيم عليه السلام. والآن ننظر بتوفيق الله تعالى في أصل هذا الأمر.

---

[١] انظر ابن هشام ص٥٢٣/١

(١٤)

أصل سنة رمي الجمار

قد دلت الأمارات الكثيرة على أن رمي الجمار بمنى كان تذكرة لرمى أصحاب الفيل. ولكن الروايات الضعيفة ضربت أسدادا دونه. قال الزمخشري:

"روى أنه (أي الكبش) هرب من إبراهيم ﵇ عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي"[1].

"وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده"[2]

وروى ابن جرير أيضا عن ابن عباس إفلات الكبش وأن إبراهيم ﵇ رماه بسبع حصيات إلى الجمرة الأولى، ثم إلى الوسطى، ثم إلى الكبرى [3]. ومع ذلك روى ابن جرير عن علي ﵁ أن إبراهيم ﵇ وجد الكبش مربوطا بسمرة في ثبير[4]. وهذا الذي رواه عن علي ﵁ موافق لما جاء في التوراة:

"فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش"[5].

---

[1] الكشاف ٣: ٣٠٨ .

[2] المرجع السابق.

[3] انظر تفسير الطري ٢٣: ٥٦ .

[4] المرجع السابق ٢٣: ٥٥ .

[5] سفر التكوين ٢٢: ١٣ .

ولا شك أن هرب الكبش لا أصل له.

وروى أيضا أن آدم ﵇ رمى إبليس عند الجمرة.

هذا، ولم أجد في صحاح الأخبار ذكرا من سبب سنة رمى الجمار. فلو ثبت فيه شئ من طريق الخبر لأخذنا به وقرت به العينان، ولكنه لم يثبت. وأمر الدين ليس بهين. وقال النبي ﷺ:

"كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع"

فعمدنا إلى طريق الاستنباط، فإن المستنبط من الصحيح الثابت أولى بالصواب من الصريح الذي لم يثبت. وقد ندب الله تعالى كثيرا إلى التفكر وتوسم الدلائل، كما قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ [سورة الحجر/٧٥]. فالآن نذكر وجوه استنباطنا، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

الوجه الأول: أن الحج ومناسكه كان أمرا قديما، وبقي متصلا من عهد إبراهيم ﵇. واقتدت به العرب كلهم. وكثر ذكره في كلامهم قبل الإسلام إجمالا وتفصيلا. فذكروا الإحرام، والاستلام، والطواف، وطير الحرم، وكون الصفا والمروة من شعائر الله، وسوق الهدى إلى منى، والنحر، وزيارة عرفة، والوقوف عند منى ثلاثا. والشواهد على ما سردنا مذكورة في تفسير سورة آل عمران، فلا نعيدها. وإنما المقصود ههنا أنا لا نجد في كلام العرب قبل الإسلام ذكر رمي الجمرات. فالأقرب إنه أمر جديد، ولم يكن إلا بعد واقعة الفيل. وأبقاه الإسلام، لما فيه تذكار نعمة عظيمة وآية بينة من الله تعالى، فجعل من الحج، وخص بالتكبير وذكر الله تعالى. وذلك هو المقصود منه، كما روى عن عائشة رضي الله عنها.

أخرج الحاكم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: أفاض رسول الله

ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها.

الثاني: أن أصحاب الفيل رموا بموضع رمى الجمرات

وبيان ذلك أن الجمرات ترمى في موضع من "المحصب". و"المحصب" من منى. في لسان العرب، قال الاصمعي: "المحصب": حيث يرمى الجمار. وأنشد:

أقام ثلاثا بالمحصب من منى   ولما يبن للناعجات طريق

وقال الراعي:

ألم تعلمي يا الأم الناس أنني   بمكة معروف و عند المحصب

يريد موضع الجمار. ونجد هكذا في قول عمر بن ربيعة:

نظرت إليها بالمحصب من منى   ولي نظر لولا التحرج عازم

وإنما سمي الموضع محصبا، لكثرة الحصباء فيه. في لسان العرب: حصب الموضع: ألقي فيه الحصى الصغار وفرشه بالحصباء. وفي الحديث أن عمر ﵁ أمر بتحصيب المسجد. وقد علمنا من غير شك أن أصحاب الفيل رموا بجنب المحصب. قال نفيل، وقد شهد الواقعة:

ردينة لو رأيت ولن تريه   لدى جنب المحصب ما رأينا[1]

في أبيات مرت في الفصل العاشر. فكان رمى أصحاب الفيل بقرب موضع رمى الجمار.

---

[1] ابن هشام ١: ٤٥ وفيه: "(ولا تريه).

وقد ذكروا أنهم رموا ببطن "محسر"[1]. وقالوا: إنما سمي محسرا لما حسر فيه فيلهم[2]. و"محسر" بين المزدلفة ومنى[3]. ويؤيد ذلك أمور. ففي الصحاح أن النبي ﷺ أفاض من المزدلفة وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة، ولكنه أوضع في وادي محسر (راجع صحيح الترمذي ومسلم وغيرهما)[4]. وقالت العلماء في سبب ذلك أن محسرا كان محل عذاب أصحاب الفيل[5]. ويؤيد ذلك ما رواه الشافعي رحمه الله في كتاب الأم وغيره أن عمر ﵁ كان يحرك في بطن محسر ويقول:

إليك تعدو قلقا وضينها   مخالفا دين النصارى دينها

فالمراد من هذا القول: يا رب إني أسعى إليك، كما يسعى العبد إلى سيده، وكانت السكينة أولى بي- كما علمنا في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [سورة الجمعة/٩]- ولكني الآن أوضعت ناقتي لأخرج سريعا من هذا الوادي الذي أهلكت فيه النصارى إذ جاءوا لكي يهدموا بيتك. فأشار إلى سببين لإيضاعه الناقة:

---

[1] قال ابن القيم: "هناك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله علينا" زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[2] انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[3] قال ابن القيم: "ومحسر برزخ بين منى وبين مزدلفة" زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

[4] في الترمذي: عن جابر أن النبي ﷺ أوضع في وادي محسر. وزاد فيه بشر "وأفاض من جمع وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة" ، كتاب الحج باب ٥٥ رقم الحديث: ٨٨٦. "من جمع" أي من المزدلفة. انظر تحفة الأحوذي ٣: ٦٢٩. وجاء في مسلم.

[5] انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨ .

الأول أن الخروج سريعا من محل العذاب أولى بالتقوى. والثاني أن أصحاب الفيل حبسوا في هذا المحل، ففي الإسراع مخالفتهم. وإنما نسب هذا الأمر إلى الناقة على طريق المجاز، كما هو ظاهر. والإسراع في محسر سنة مشهورة[١]، ولذلك لا ينبغي الوقوف بمحسر. في الموطأ:

"إن المزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر" [٢].

وقال الشافعي رحمه الله:

"لا يبيت أحد من الحاج إلا بمنى. ومنى ما بين العقبة. وليست العقبة من منى إلى بطن محسر، وليس بطن محسر من منى".

وفي صحيح مسلم:

"إن محسرا من منى".

وعلى كل حال فبطن محسر متصل بمنى.

ولما كان جيش أبرهة بمحسر، وكانوا يأتون إلى مكة فلابد أن تكون مقدمة هذا الجيش بالمحصب الذي يرمى فيه الجمرات.فإن صح ما ذكرنا فالأقرب أن الجمرات علامات لمقدمة جيش أبرهة، أو لفيلته التي رماها المدافعون عن مكة. فأنزل الله تعالى عليهم الحجارة من السماء.

الثالث: إنه من الثابت المتفق عليه أن النحر تذكار لسنة قربان إبراهيم ﵇ بابنه، فلو كان أصل الرمي، كما زعموا، رمي الشيطان

---

[١] كما جاء في زاد المعاد: "فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير. وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه" ١: ٢٢٨ .

[٢] موطأ للإمام مالك ، مع شرح الزرقاني ، الوقوف بعرفة والمزدلفة ، رقم الحديث ٨٩٥ ، ص ٣٣٧ (الجزء الثاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م) .

لكان النحر في اليوم الثالث أو الرابع بعد الفراغ عن رمي الجمرات. ولكن النحر يقع في اليوم الأول من أيام الرمي. فلماذا يرجم الشيطان في اليوم الثاني والثالث، وقد طرده إبراهيم ﵇ قبل ذلك وقرب ابنه واستراح من مكره.

أما أصحاب الفيل فلما رموا أول يوم وأصيبوا وحبسوا عن التقدم رجع الحجاج إلى رحالهم ومواقفهم بمنى، وشكروا الله ونحروا وكبروا. ثم لما لم يئس أبرهة كل اليأس وتشجع وأراد الخروج إلى مكة في اليوم الثاني رمى الحجاج جيشه مرة أخرى. وهكذا في اليوم الثالث حتى فلوا وولوا بين هالك صريع وسالك سريع.

والرابع: إنه في اليوم الأول من أيام الرمي لا ترمى إلا الجمرة التي تلي العقبة، وهي أقرب الجمرات إلى مكة. ولا يتعرض في هذا اليوم للجمرتين: الدنيا والوسطى. وهذا أحسن مطابقة بحال تقدم أصحاب الفيل إلى مكة في اليوم الأول. فإنهم لما أصيبوا في ذلك اليوم دخلهم الفشل، وتشجعت العرب فمنعوهم وراء المقام الأول.

والخامس: إن الجمرة التي ترمى في اليوم الأول هي أكبرهن، وهذا أحسن مطابقة بحال الجيش. فإنهم لما أصيبوا وضعفوا قل عدد المتقدمين منهم. وأما الشيطان فهو الذي ترآءى لإبراهيم ﵇ في اليوم الأول، فبعيد أن تكون علامته متفاوتة في الحجم.

والسادس: إن بعد الرمي في اليوم الأول والثاني استقبال إلى الكعبة، ووقوف، ودعاء طويل؛ ولا وقوف بعد الرمي في اليوم الثالث. فلو كان الرمي على الشيطان لم يكن هذا الاهتمام بالدعاء في اليومين وتركه في الثالث. فإن إبراهيم ﵇ قد كان صمم العزم و لم ير في نفسه ضعفا، ورميه

الشيطان لو وقع لم يكن إلا استحقارا به ولعنا عليه. وأما إذا جعلنا الرمي على جيش أبرهة فإنه كان جيشا عظيما زهاء ستين ألفا، كما روى[1]. فالتضرع إلى الله تعالى وطلب النصر منه على هذا الجيش أقرب إلى المعقول. وقد ذكروا أن عبد المطلب دعا الله تعالى للنصر على أصحاب الفيل، كما مر في الفصل العاشر. فعلى هذا نرى أن أصحاب الفيل لما هربوا، ومزقوا كل ممزق في اليوم الثالث أمسك أهل الحج عن الدعاء عليهم.

والسابع: ما يدل عليه كلمة "الجمرة"، فإن العرب أبصر الأمم في تسميتهم الأشياء. ولذلك ذكروا في تسمية الجمرات وجوها. في شرح الزرقاني للموطأ تحت رمي الجمار:

"جمع جمرة وهي اسم لمجتمع الحصى. سميت بذلك لاجتماع الناس بها. يقال تجمر بنو فلان إذا اجتمعوا. وقيل: إن العرب تسمي الحصى الصغار جمارا، فسميت ذلك تسمية للشئ بلازمه. وقيل: لأن آدم أو إبراهيم لما عرض له إبليس فحصبه فجمر بين يديه أي أسرع، ذكره الفتح. وقال الشهاب القرافي: الجمار اسم للحصى لا للمكان، والجمرة اسم للحصاة. وإنما سمي الموضع جمرة باسم ما جاوره وهو اجتماع الحصى فيه"[2].

فالوجه الذي ذكره أولا هو أقرب إلى الصواب، ولذلك قدمه. في لسان العرب:

"الجمرة القبيلة لا تنضم إلى أحد. وقيل: هي القبيلة تقاتل جماعة

[1] قد ورد في شعر عبد الله بن الزبعرى أنه كان "ستون ألفا". انظر ابن هشام ١: ٤٩.

[2] الجزء الثاني: ٣٦٨-٣٦٩.

قبائل فيكون فيها ثلاث مئة فارس أو نحوها. والجمرة ألف فارس"[1]

أيضا فيه:

الجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناواها من سائر القبائل. ومن هذا قيل لمواضع الجمار التي ترمى بمنى: جمرات، لأن كل مجمع حصى منها جمرة وهي ثلاث جمرات. وقال عمر بن بحر: يقال لعبس، وضبة، ونمير الجمرات. وأنشد لأبي حية النميري:

لنا جمرات ليس في الأرض مثلها ... كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقى نفيانها ... وضبة قوم بأسهم غير كاذب

وفيه أيضا:

"في حديث عمر لألحقن كل قوم بجمرتهم أي بجماعتهم التي هم منها. وأجمروا على الامر وتجمروا: تجمعوا عليه وانضموا".

فهذه الأقوال مع بعض الاختلاف فيها تدل على أن الجمرة اسم لجماعة مستقلة لم تنضم إلى أحد من القبائل لاعتمادها على قوتها وباسها. فعلى هذا نقول إن جيش أبرهة كانت أولى بهذا الاسم، فإنها جاءت مخالفة لجميع العرب و لم تنضم إلى أحد من القبائل. والجمرات عند منى لما كانت علامة لهم سميت بذلك الاسم.

والثامن: إنهم يذكرون أن أبا رغال الذي صار دليلا لأصحاب الفيل كان رمي في هذه الواقعة وهلك. فكانت العرب ترجم قبره. في معجم البلدان في ذكر المغمس:

"موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال وقبره

[1] انظر كلمة (جمر).

يرجم لأنه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك"[1].

وقيل غير ذلك في سبب رجم قبره. فإن صح ما ذكروا فهذا نظير لرجم أصحاب الفيل، وحمل الأمور على النظائر أولى. وإنما ترك رجم قبر أبي رغال لأن الإسلام ترفع عن رجم القبور، ولأن رمي الجمرات يكفي تذكارا لتلك الواقعة. ذلك، والله تعالى أعلم.

(١٥)

أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار

إن صح ما ذكرنا من أصل سنة رمي الجمار سواء كان الرمي من الطير أو من العرب، بعد أن كان على أصحاب الفيل أعداء مكة والمركز الإبراهيمي – منبع التوحيد والدين الحنيفي – فلابد أن تكون نيتنا عند أداء هذا المنسك وعند الدعاء بعد الرمي غير ما هي تكون إذا توهمنا أنا نرجم الشيطان الذي رماه إبراهيم عليه السلام أو الكبش الذي ذبح فدية لإسماعيل عليه السلام. والآن نذكر الفرق بينهما ببعض التفصيل.

(الف) الذي يرى في رميه أنه يرمي الشيطان لا يحس بداعية قوية خاصة. فإنه يعلم أنه إنما يرمي بحصياته حجرا، ولا يرجو بذلك أنه ينجو به عن مكر الشيطان ويبعده عن نفسه لمدة. أو أن ذلك أشد تأثيرا من تلاوة المعوذتين أو الحوقلة أو التأذين. فلا يجد عند ذلك موقعا خاصا، ولا في نفسه عاطفة قوية كسائر ما يجد عند مشاعر الحج. وأبعد منه ما يروون من إفلات الكبش، وأن هذا الرمي تذكار لرمي ذلك الكبش. فهذا في

[1] معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي ٥: ١٦١ (بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

غاية السخافة مع كذبه، كما بيناه قبل هذا الفصل.

وأما إذا علم أنه يتذكر برميه هذا نصرة الله التي خصها لأهل هذا البيت، وأنه تعالى ضلل كيدهم وبدد جمعهم فإنه يتذكر أمرا عظيما، ويجمع همته، ويرى أن الله تعالى قادر أن ينصرهم على أعدائهم مع ضعف السبب والعدة بجنوده الخاصة. فيزدادون توكلا على ربهم واعتصاما بفضله ورجاء لرحمته. ويرون أنفسهم مجاهدين في سبيله، مقاتلين لا بالسلاح بل بمحض الهمة وقولهم: "الله أكبر" على قذف كل حصاة.

(ب) ثم إنهم إذا قاموا للدعاء بعد الرمي لم يخرجوا عن تلك الحال، بل دعوا الله دعاء المجاهدين، وتجتمع هم جميعهم على أمر واحد. والدعاء إذا كان من جماعة عظيمة على أمر واحد توجه إليه عناية الرب تعالى، كما ترى في صلاة الجماعة وصلاة الاستسقاء. وكان هذا الدعاء تضرعا إلى الله فيخرجون به من الذين يتكلون على محض جمع الهمة على أمر ما، كأصحاب السحر وعبدة الأوثان. فيكون هذا الدعاء إتماما وتصحيحا للنية التي رموا بها الجمار.

(ج) تذكرة تهدى إلى كون الحج كله من الجهاد

ذبح البهيمة علامة ذبح النفس. والأضحية فدية. وحقيقة الجهاد هي ذبح النفس وإنقاذها من النار. ثم هذه رحلة الحجاج وحلولهم ليلا، ووقوفهم نهارا، وصلاتهم صلاة المستعجل كل ذلك أشبه شئ بتمرين عسكري. ومن حج يتيقن أن هذا لا يصلح إلا تحت قائد عسكري.

كأن حالة الحجاج في هذه المنازل تنادي جهارا إلى ضرورة نظم عسكري. وهذا كما ترى أخرج موسى عليه السلام بني إسرائيل، فكان ارتحالهم وقيامهم على قواعد عسكرية. وترى هناك موسى عليه السلام كالقائد العظيم

الذي يجلس أحيانا لفصل الخصومات، وأحيانا يقود العسكر على نظام ويحلهم على نظام.

فإذا صحح المسلمون نياتهم للجهاد وكابدوا مشقة هذا التمرين فكأنهم أشهدوا على تهيؤهم لذلك إذا دعوا إليه. وأين في نية رمي الشيطان هذه الحكمة؟ فإن قلت إن هذا رأي مبتدع، لم نسمع ولم يخطر ببالنا أن الحج له أدنى مناسبة بالجهاد، بل هو التعبد المحض والبعد عن الحرب، ولذلك أمروا بقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ [سورة البقرة/١٩٧]، وإنما هو لذكر الله والطواف لبيته. قلنا: إن كشف هذا يستدعي فصولا مستقلة في بيان حقيقة الحج، وله موضع أولى به من هذا.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين، والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة الفيل

فهرس مطالب الفصول